رثاء الأب في الشعر المعاصر

الأستاذ المساعد الدكتور
عبدالرضا عطاشي
جمهورية إيران الإسلامية ـ جامعة آزاد الاسلاميّة آبادان
Abdolrezaattashi2014@gmail.com

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

يعد (الرثاء) من الموضوعات البارزة في ديوان الشعر العربي، سواء في القديم أو المعاصر، لأنه يرتبط بظاهرة الموت الذي كتبه الله على كل البشر، ومن الطبيعي أن يحزن الإنسان، فضلاً عن الشاعر ؛ لفقد أحبته و غيابهم عن الأنظار. ومن أجل هذا، لطالما عبر الشعراء عن إحساسهم بفقد الأحبة، ولاسيما (الأب)، إذ كان فقد الأب مصاباً جللاً، وخاصةً إذا كانت علاقة الابن بأبيه على نحوٍ وثيقٍ، سواء في صورةٍ إيجابية أو سلبيةٍ. ولعلَّ من الأهمية أن نشير هنا إلى أبرز الشعراء في العصر المعاصر، الذين عاشوا هذه التجربة، وحاو لوا أن يعبروا عنها، ومن هؤلاء على سبيل المثال:محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي، اويليا أبو ماضي، وأبو القاسم الشابّي، وصلاح عبد الصبور، وعبد المنعم الرفاعي، ونزار قباني، و إبراهيم السامرائي وحبيب الزيودي، والحساني حسن عبد الله، وأحمد صالح الصالح، و سواهم. اخترت هذاالموضوع لدراستي لأنّه:

- هو(مرثية الأب)، يشف عن عاطفة إنسانيةٍ راقيةٍ، هي عاطفة الابن تجاه فقد أبيه.
- عدم عناية الدارسين بموضوع (مرثية الأب في الشعر العربي المعاصر)، على العكس من موضوع (مرثية الأم) الذي كان محط عنايتهم واهتمامهم [لعل أهم ما يمكن أن يشار إليه هنا كتاب (الأم في الشعر المعاصر) لمحمد إبراهيم حوّر] هذا وقد اعتمدت الدراسة المنهج (الوصفي التحليلي)، الذي يقوم على جمع المادة الشعرية من مظانّها، وذلك لغايات وصفها وتحليلها تحليلاً نقدياً من شأنه أن يكشف عن أبعادها

النفسية والفكرية وقد اقتضت طبيعة هذه المقالة أن أجعلها بعد المقدمة، فصلاً مهماًوذلك على النحو الآتي: تجربة (فقد الأب) ومواقف الشعراء.

- موقف الحزن والتّفجع.
- موقف الحنين والتّذكار.
- موقف العتاب والنّدم ثم الخاتمة: (وهي تشتمل على أبرز النتائج التي انتهى إليها البحث) وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه الكريم،نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تجربة (فقد الأب) ومواقف الشعراء.

تواجه الإنسان في حياته صدمات شتى تسبب له الحزن والأسى، وأعظم تلك الصدمات فراق الأحبة، وأشد صور الفراق إيلاماً ما كان سببه الموت، مما يفجر عاطفة الحزن في النفس الإنسانية (التشبيه في مختارات البارودي، محمد رفعت أحمد زنجير؛ ص:٢٤١).

ولا شك أن الحزن على مرّ العصور يعتبر " مادة أساسية في قصائد الرثاء، وهو الخيط الذي يلف أفكارها"، [رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري، مخيمر صالح موسى يحي، ص: ٢٠] وهو أحد صور العاطفة و المشاعر الإنسانية الفطرية". [الحزن والاكتئاب على ضوء الكتاب والسُّنة، عبد الله الخاطر، ص: ١٦] "والحُزْن والحَزَن: نقيض الفرح، وهو خلاف السرور، والجمع أحزان [لسان العرب، للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، المجلد الثالث، ص:١١١] "وقد يمر الإنسان بمرحلة خطيرة بين الحزن والتفجع لدرجة أنه يصاب بإنكار ذلك المصاب وعدم التصديق، فلا يصدق بالذي حصل؛ وذلك لكي يهون على نفسه المصيبة". [الحزن والاكتئاب على ضوء الكتاب والسُّنة، عبد الله الخاطر، ص: ٢٤].

وللحزن أنواع بحسب أسبابه:

١- الأول: هو حزن مطلوب ويمتدحه الله سبحانه وتعالى، وهو الحزن على أمر من أمور الدين، وهذا الحزن يدفع إلى العمل ولا يثبط .

الثاني: الحزن على فراق أمر دنيوي، وهذا أمر يجب أن نحرص على عدم حدوثه، لأن هذه الدنيا لا تساوي شيئا بالنسبة للآخرة " الحزن والاكتئاب على ضوء الكتاب والسُّنة، عبد الله الخاطر،ص:١٩] وأكثر الناس الذين يؤثر فيهم هذا الحزن هم الشعراء، ولذلك نرى "الحضور المكثف لظاهرة الحزن في قصيدة الرثاء، وهذا جعل منها ظاهرة أصيلة تنبع من جوهر النص الشعري [رثاء الأسرة في شعر ابن حمديس الصقلي، مصلح بن بركات المالكي، ص: ١٢٩]" وتولد مشاعر الحزن في نفس الشاعر انفعالات تهيجه على قول الشعر،وتبرز قيمة هذه الانفعالات عند الرثاء". [التشبيه في مختارات البارودي، محمد رفعت أحمد زنجير،ص: ٢٤١] وكان البكاء مظهرا من مظاهر الحزن والتأثر عند الشعراء" والشاعر يئن ويتفجع حين يشعر بلطمة مروعة تصوَّب إلى قلبه، فقد أصابه القدر في أبيه، وهويترنَّح من هول الإصابة ترنُّح الذبيح، فيبكي بالدموع الغزار، وينظم الأشعار يبث فيها لوعة قلبه وحرقته".

[الرثاء، شوقي ضيف، ص: ٥] كما نرى في العديد من تجارب الشعراء، ومنهم الشاعر عبد المنعم الرفاعي، إذ إن الموت كان شديد الوطأة على نفسه [التشبيه في مختارات البارودي، محمد رفعت أحمد زنجير، ص: ٢٤٢] فهو يقول في أولها:

أيهـــا الهامـــد جســـماً ولســـانا خلـــف الـــدنيا جـــلالا والزمانـــا

[شعرعبدالمنعم الرفاعي، تحقيق ابراهيم الكوفحي، ص:٣٠] قصيدة (أبي) عبد المنعم الرفاعي تدور حول رثاء الشاعر لوالده، وذكر محاسنه، وأثر فقده، وعاطفته هنا صادقة حيث يتضح حزنه العميق فيها، وتفجعه في مصابه بفقد والده، وربما يعود ذلك لارتباط الشاعر القوي بوالده، فهو الذي حببه في الشعر، لقد استطاع الشاعر عبد المنعم الرفاعي أن ينقل لنا تجربته الذاتية في صورة شعرية رائعة، ما يدل على براعة هذا الشاعر في تصوير اللامعقول في صورة المعقول بألفاظ موحية ومعاني جزلة، وأن النص قد تميز بصدق العاطفة، حيث تحدث الشاعر عن تجربة شعورية صادقة حدثت بالفعل، لذا نلاحظ الصدق في التعبيرات والأفكار والمعاني التي أوردها في قصيدته. كما استخدم الألفاظ الموحية بتلك العاطفة، والقادرة على نقل ما يجده من معاني وأحاسيس؛ فنجده عندما تحدث عن ألم الفراق والحزن والتفجع أتى بألفاظٍ عميقة الدلالة على ذلك، مثل: (الهامد، الموت،

جثمانه، هجعته، تلاشيت، أشلاء، ظلمة، مفجوعك، القبر...) أما عندما تحدث عن الاضطراب والحيرة، فنطالع على سبيل المثال: (ما العيش؟، ما الموت؟، أحجيات، غموض) فكلها ألفاظ وعبارات موحية وملائمة للمعنى الذي أراده الشاعر حيث نلمح من خلالها قدرة الشاعر على الاختيار الدقيق والصياغة المؤثرة. نتحرك قليلاً إلى أبيات لشاعر آخر حيث جاءت قصيدته (جنان الخلود لك الموئل) لتؤكّد روح الشعر العربي الصافي الذي يمتلكه هذا الشاعر الكبير يوسف أبو هلالة، حيث أعاد من خلال هذه القصيدة روح غرض الرثاء في التراث العربي القديم ولكن برؤية حديثة، فنجد أن الشاعر يسيطر على رثائه الحزن والتفجع فهو في تعبيره عن افتقاد والده، يصف حاله وصفاً دقيقاً ثم يتحدث عن أحوال والده والظروف التي أحاطت به قبيل موته وأنه كان مصاباً بالشلل لمدة ثماني سنوات تحمَّل المرض الشديد فيها بعد ستين عام اً من عمره، حيث أعطى صورة للشمس عند غروبها وهى تحمل الآلام، كما أن النهار يكتئب عند رحيلها ويذبل وكأن تلك الشمس هي والده المفتقد، ثم يتحول الشاعر للحديث عن مناقب والده وصفاته الحميدة، التي قلما أن يتصف بها إنسان فيقول:

أتـــاني بنعيـــك بعـــض الصـــحا ... ب فنـــاءت بمـــا ارعـــني الأرجـــل

[دموع الوفاء، يوسف محي الدين أبو هلالة، ص: ٣٧] أنتقل إلى قصيدة أخرى في الرثاء وأرى أن هذه القصيدة رائعة لكن لو كانت في العصر القديم، فالشاعر محمود سامي البارودي اعتمد في قصيدته طريقة القدامى في تناول المضمون والشكل فالبارودي يعمد إلى التقليد منذ البداية فهو يصوِّر والده المرثي فارساً من فرسان الصحراء العربية في العصر الجاهلي؛ فهو الذي كان يحمي أنعام القبيلة، وهو قائدها الذي لا يشقّ له غبار في الحرب، ووجهها الساطع الذي لا ينازع في السّلم. [ديوان محمود سامي البارودي، جمع وتقديم وتعليق سمير إبراهيم بسيوني، ص:١٥١] فإذا ما انتقل إلى المعاصر عن أثر موت أبيه في حياته وجدناه يعود إلى الواقع، ولمحناه طفلا في السابعة من عمره يفقد الأب الحامي:

مضـــى وخلّفـــني في ســـنّ ســـابعة ... لا يرهـــب الخصـــم إبراقـــي وارعـــادي

[نفسه،ص:١٥٢] "الحنين هو الشوق، وشدة البكاء والطرب، أو صوت الطَّرب عن زن أو فرح [القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ص: ١١٩١]

"والحنين عند ابن منظور، هو الشديد من البكاء والطرب، والحنين :الشوق، وتوقان النفس، والمعنيان متقاربان".[لسان العرب؛ ابن منظور ص: ١٢٩] وفي "حديث عن النبي ﷺ: أنه كان يصلي إلى جذعٍ في مسجد، فلما عمل له المنبر صعد عليه، فحنَّ الجذع إليه، أي نزع واشتاق " [نفسه، ص: ١٢٩] هناك نوع من الحنين، مثل حنين المرأة لزوجها، أو الأم لطفلها، وهذا حنين رقيق مع مشاعر لا توصف، أمَّا الحنين الآخر فإنَّه الحنين الموجع عندما تفارق من تحب وأنت على يقين بأنَّك لنْ تراه إلى الأبد فالآن هو أمامك لا يتحرك وكان دائما بجوارك يؤنسك ويسليك ويعطف عليك ويزودك من الحنان ما يمكنه من دخولِ قلبكَ إلى الأبد، فها هو يرحل وما أنت فاعل! فالفرق بين الحنينين كبير، فالأول فيه فرحة؛ لأنه يتبعه لقاء، والثاني فيه حزن ؛ لأنه بعد الفراق. وعندما يفقد الإنسان والده تكون المصيبة عظيمة " فتبقى عيناه متعطشة لرؤياه ويبقى قلبه يحن إليه، ولن يعرف الراحة في النوم، ولا الطعم في الأكل، ولا المتعة في مجالسة الأصدقاء والأقارب، فقلبه مع أبيه المفقود، و يعجب من المبتسمين ويقول: كيف هؤلاء يبتسمون في مثل هذا الوقت، ولن ينطفئ ذلك الحنين إلا بالصبرعلى المصيبة ؛ لأن اللقاء لن يتم، فالأب قد توارى عن نظر ابنه إلى الأبد، لذلك فإن الابن عندما يحن لوالده المتوفى، فهو مع كل نفس يتنفسه تكون بداخله مقولة تُلح عليه، هي لقد اشتقت إليك كثيرًا http://www.dhifaaf.com/vb/showthread.php?p=119702 [خالد عطار، شبكة ضفاف] ونجد الشاعر حبيب الزيودي يحزن على فراق والده، ويحن إلى الماضي الجميل الذي يستعيد فيه الذكريات حيث يغدو الأب مفجرًا للذكريات الجميلة والحزينة في نفس الوقت، ومشعلاً للقيم القروية والإنسانية التي يحن إليها الشاعر، ويمثّل الأب قوة العائلة وهيبتها ويقارن بين الماضي الذي عاشه مع أبيه وبين الحاضر الذى وصفه بحاضر الخسارات والانهيارات والخيبات فيقول:

أقـــــول أبي فيســـــعفني حنـــــيني لوجـــــه أبي ويخـــــذلني الكـــــلامُ

[منازل أهلي، حبيب الزيودي، ص:٤٤] ننتقل إلى تجربة أخرى لشاعر آخر تختلف عن تجربة حبيب الزيودي وهي تجربة صلاح عبد الصبور ففي هذه القصيدة عبر عنها بالشكل القصصي الذ ي يفسح المجال لالتقاط معنى الحنين من خلال سرد الشاعر لذكرياته مع والده مباشرة بعد ما استقبل خبر وفاة الأب حين يقول:

... وأتى نعي أبي هذا الصباحْ

... نام في الميدان مشجوج الجبينْ [الناس في بلادي، ديوان صلاح عبد الصبور، ص:٢٣].

لقد ظهرت عاطفة جلية وواضحة في القصيدة من خلال بنية الشاعر العميقة للمعاني حيث تحمل الكلمات معنى الحنين، على الرغم من عدم التصريح بهذه الكلمة، كما كان ذلك التصريح عند حبيب الزيودي. بدأت الذكريات تجذب بعضها بعضاً في مواقف تذكرها الشاعر بعينها، وبدأ الحنين والشوق يدب في قلب الشاعر حينما تذكر مرحلة الطفولة، وحينما كان يحمله أبوه وهو صغير السن، ويصف تفاصيل دقيقة في طفولته وشاعر آخر جاءت قصيدته فقط لرفع اللُّوم من قبل الآخرين على تأخره في رثاء أبيه، وتبرز هنا قصيدة أحمد شوقي في رثاء أبيه، حيث كانت قصيدته خالية من العاطفة الصادقة، والمشاعر المؤثرة، فعلى الرغم مما قيل عن أمير الشعراء، من أن شعره" كان ينساب كالجدول، والنهر النمير، يطرب سامعه، ويثير الإعجاب" [أحمد شوقي الشاعر الإنسان، أحمد عبد المجيد،ص: ١٠٦] ولعل أبرز ما يميز قصيدة أمير الشعراء الميل إلى الحكمة والمبادئ التي خلص إليها الشاعر بالتفكير الواعي، وهي وليدة لعقله العارف المستنتج، وعُرف عن أحمد شوقي الرثاء الفلسفي العميق، حيث يسلك مسلك الشعراء القدامى فينفذ من حادثة الموت الفردية التي هو بصددها إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة كما في قوله:

يـــا أبي، مـــا أنـــتَ في ذا أولٌ كـــلُّ نفـــس للمنايـــا فـــرضُ عَـــينْ

[الأعمال الشعرية الكاملة، أحمد شوقي، ص ١٥٤] إذا نظرنا إلى طريقة شوقي في عرضه لذكرياته نجده يسردها بأسلوب بارد لا يحزن فيه ولا يتألم كباقي الشعراء، ولا عجب في ذلك؛ لأن أحمد شوقي لا يتغنَّى وجدانه الفردي إلا قليلاً، ولكنه يحاول دائماً أن يتغنَّى وجدان عصره ومجتمعه. اعتمدت مختلف المجتمعات الأسرة نظام اً أساسياً ومصدراً أخلاقياً وتربوياً يعمل على تنشئة الابن لصالحه وصالح المجتمع، وتقع على الأب مسؤولية رعاية هذا الابن بشكل أساسي مع الأم، كما يوجهنا إلى ذلك رسولنا الكريم ﷺ في قوله "أَلَا فكُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيتِهِ" وحينما يقوم الأب بإشباع حاجات الابن وتحقيق ما يصبو إليه وتوفير الأمن العاطفي والفكري والاجتماعي والمادي وكل أنواع الاحتياجات، ثم نجد الابن بعد ذلك لا يفي الأب حقه من الولاء، والعطاء، والوفاء، فهنا

فتتحكم مشاعر الندم بالابن وتسيطر عليه فيتذكر قصوره في واجبه تجاه أبيه، فالشعور بالندم، وعتاب الأب علاقة عكسية ويكون العتاب نتيجة تقصير الأب في حق الابن، والندم نتيجة تقصير الابن في حق أبيه. **العتاب** فن من أهم فنون التعامل مع الآخرين، ولكن إذا استُخدِم في الوقت المناسب "وهو من الموضوعات الشديدة التَّعقيد، البالغة التَّفرُّد" [مدح العتاب وذمه في الشريعة والحكمة والأخلاق، عبد القادر الشيخلي، ص:٢٤] والعتاب في اللغة من " عتب عليه: وَجَدَ، والعتاب مخاطبة الإدلال ومُذاكَرَة المَوْجدة" [القاموس المحيط، الفيروز أبادي، ص:١١١-١١٢] وعاتب من عاتبه معاتبةً وعتاباً: لامه والعَتْبُ والعُتْبان، لومُك الرجلَ على إساءة كانت له إليك، فاستعْتَبْته منها [لسان العرب، لابن منظور، ص: ٥٧٧] "وقال أوس بن حارثة لولده: العتاب قبل العقاب. " [الشكوى والعتاب وما وقع للخلَّان والأصحاب، لأبي منصور الثعالبي،ص:٢٨] وكتب في ذم العتاب " العتاب مقدمة القطيعة. ..ورسول الفرقة وداعي القلى وسبب السلوان وباعث الهجران [ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ص:١٦٣] وقال الإمام علي كرم الله وجهه " لا تقطع أخاك على ارتياب، ولا تهجره دون استعتاب " [العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، ص:١٦٣] وهناك أسباب متعدِّدة من شأنها أن تحدث العتاب منها (العتاب بسبب السخرية، أوالخيانة، أو الخداع، أو الغيرة، أو الحسد. [مدح العتاب وذمه في الشريعة والحكمة والأخلاق، انظر عبد القادر الشيخلي، ص:٢٧] وللعتاب أهداف نذكر بعضها وهو ما يخص موضوعنا في رثاء الأب وهي: (أن يكون العتاب أداة لنقد الآخر كأن ينتقد الابن باه، والشعور بعدم الرضا عنه، العتاب كإعلان عن الود والمحبة، العتاب كمحاولة لفهم الآخر لغموضه و انعدامه) [مدح العتاب وذمه في الشريعة والحكمة والأخلاق، عبد القادر الشيخلي،ص:٢٩] قال عبد الله بن جعفر لابنته "إياكِ والغيرة فإنَّها مفتاح الطلاق، وإياكِ وكثرة العتب، فإنه يورث البغضاء. [نفسه، ص:٩٩، عن كتاب المحاسن والأضرار للجاحظ، ص:٢٨٧] ومن يتأمل قصائد مرثية الأب في العصر المعاصر يجد عند الشعراء أنماطاً متعددة من المشاعر، منها الحزن والتفجع، والحنين والتذكار، والعتاب والندم ويعتبر العتاب غرض اً شعري اً يضع الشاعر في موقف حرج يحتاج إلى براعة؛ لأنه يتصل بوجدان الشاعر فلا يمكّنه من التخلي عن موقفه، وعليه أن يعادل بين الصعوبة واللين في عتابه، وحين يكون العتاب لإنسان حي فهو مقبول أما إذا كان العتاب لإنسان مفقود، فذلك مما

يدعو للغرابة، وهذا ما وجدناه عند الشاعر صلاح عبد الصبور الذي سيطر عليه الخوف، واتضح ذلك من الكلمات التي استخدمها في أبياته، ومن عتابه لوالده، فهو ليس خائفاً من الموت بحد ذاته، وإنما هو خائف من الحياة بعد موت أبيه، فبدلاً من أن يعاتب الموت الذي قضى على أبيه، راح يعاتب الأب. [الأعمال الشعرية الكاملة، صلاح عبد الصبور، ص: ١٢٠] ويلجأ حبيب الزيودي إلى العتاب أيضاً في قصيدته ولكنه هنا لا يعاتب أباه، وإنما يعاتب الموت. [منازل أهلي، حبيب الزيودي، ص: ٤٠] وإذ ما هدف الشاعر هنا من عتاب الموت، وهو يعلم أنه ليس له سبيل على الموت، وأن الموت لا يعاتَب، فلا جدوى تُرجى من عتابه، إذن هو ينتقد الموت الذ ي يحفه الغموض، الموت الذي غ يب أباه، سيفه الحامي من الشرور والمصائب، ورداءه الذي يغطّيه ويدفئه، بل إنّه الخبز والماء، فهو كلّ ما في الحياة من مفردات أساسية، وبأخذه من الحياة يتحوّل الشاعر إلى العراء والفناء إلى الهجير بلا سند ولا حماية قائلاً:

.....ما الذي يقصيك عني؟

.....ما الذي يدعوك للبحر الكبير؟

.....ما الذي يدعوك للدرب المضلل؟ [منازل أهلي، حبيب الزيودي، ص:٤١.

ولا يعْدَم القارئ المتذوق الصدق العاطفي في مرثية أبي القاسم الشابي (يا موت)

يا موت! قد مزقت صدري وقصمت بالأرزاء ظهري

ورميتني من حالق، وسخرت مني أي سخر

فلبثت مرضوض الفؤاد أجر أجنحتي بذعر

[أغاني الحياة، أبو القاسم الشابي، ص:١٤٠]

كان الشابي شاعرًا متوهج الحس، صادق الهاجس، ذا شخصية ثائرة، فنراه يثور على الموت فبدأ بتوجيه عتابه الشديد مباشرة إليه، على أنه مصدر المصائب" فموت والده أحدث هزة عنيفة في حياته، كان من آثارها أن وجد الشاعر نفسه فجأةً مثقلاً بالأعباء، فقد كان والده ملاذه الأول عند الخطوب. " [أبو القاسم الشابي عبقرية فريدة وشاعرية متجددة دراسة ومختارات، سحر عبد الله عمران، ص:٤٨] عندما نتأمل قول الشابي في أبيه ندرك

مدى ارتباطه بهذا الأب الحنون يقول الشابي عن أبيه " إنه أفهمني معاني الرحمة والحنان، وعلمني أن الحق خير ما في هذا العالم، وأقدس ما في الوجود" [ديوان أبي القاسم الشابي حياته، شعره، ص:٧].

والشابي عاش المأساة وأدركها لذا كانت عاطفة العتاب عنده صادقة؛ لما كان من معاناة مريرة بعد موت أبيه، فعتابه حمل نبرة يائسة مستسلمة لحقيقة الموت، ألا وهى تمنى الموت بعد وفاة الأحباء، وهذه النبرة لا تتفق مع طبيعة أبى القاسم الشابي التي تميل إلى التفاؤل، ولعل معاناة أبي القاسم من مرض القلب وإيمانه بأن أجله قريب ومن ناحية أخرى نجد الشاعر الحساني حسن عبد الله يلجأ إلى العتاب حيث جاءت قصيدته قصيدة رثائية من نمط جديد في موضوعها؛ لاحتوائها على هجاء للأب لم يعرف عند أحد قبله.

ينطلق الشاعر في قصيدته من الرثاء إلى الهجاء، فحالة العتاب، والتأنيب، والغضب ولم يجد الشاعروقتاً مناسباً لعتاب والده إلا بعد موته، حتى يستطيع أن يقول كل ما يجول بخاطره بحرية، وعاطفة الشاعر تتراوح بين العتاب أحياناً وبين الهجاء أحياناً أخرى يقول الشاعر:

أبى دمـــــع تحـــــرك في جفـــــوني وطيفـــــك ماثـــــلٌ في ناظريـــــا

[عِفتُ سُكونَ النار، الحساني حسن عبد الله، ص: ٤٥]

من الجدير بالذكر أن الشاعر تذكر سوءات أبيه التي ظل يعاني منها طوال حياته، فكانت هذه السوءات هي المبررات العقلية التي أتى بها الشاعر في صيغة عتاب ؛ لتوضح أسباب تحرك الدمع وتقطره فالدمع يتحرك ويقطر، ولا يستطيع النزول من عيني الشاعر ولفظة يقطر تدل على الدمع القليل؛ نظرًا لأن الأب كان (جبارًا عتيا) فالشاعر يحاول استعطاف الدموع لتنزل على فراق أبيه المغيب كأي إنسان طبيعي، ولكنه لا يستطيع ذلك ؛ لذا نجد الشاعر بصددٌ إقناع الأب الميت والقارئ بأسباب عدم بكائه في هذا الموقف المؤلم. يتضح مما سبق تنوع نبرة العتاب عند الشعراء، وإذا أردنا أن نطلق صفة على كل شاعر بحسب ما تحمله قصيدته من مضمون **فصلاح عبد الصبور** نسميه **الفيلسوف** لرؤيته الفلسفية التي ضمنها أبياته، حيث جعل ذل ك منطلق عتابه لأبيه، وليس للموت، لإيمانه بأن الإنسان هو الموت فكان عنوان قصيدته (أبي) فالعنوان أنبأ عن مضمون القصيدة، أما

حبيب **الزيودي** فنسميه **المتفائل** ويتضح ذلك من عنوان قصيدته أيضاً وهو (منازل أهلي) فهو بعد أن وصف أباه بعدة صفات أنه السيف الحامي من الشرور والمصائب، وردا هؤ الذي يغطّيه ويدفئه، بل إنّه الخبز والماء، إذن فهو كلّ ما في الحياة من مفردات أساسية، وبأخذه من الحياة يتحوّل الشاعر إلى العراء والفناء، والشاعر **أبو القاسم الشابي** نطلق عليه الشاعر **المتشائم**؛ لأنه كان متعلقاً بوالده إلى حد التقديس، فكان يرى فيه المثل الأعلى في عقيدته وسلوكه، فلما افتقده كان موته صدمة صاعقة زعزعت كيانه ونبهته إلى فاجعة المآل والمصير ؛ مما جعله يشعر بالتمزق العاطفي. [قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، عبد السلام المسدي، ص:٥١] ومما يدل على ذلك العنوان الذي أطلقه على قصيدته (يا موت(فالعنوان يحمل العتاب صراحة للموت، فنادى عليه بصيغة النكرة لتفيد العموم والشمول، فهو يريد الموت بأي حالٍ كان، وأخيراً الشاعر **الحساني** الذي نسميه الشاعر **المهموم، الحزين، الشجي، الجسور،** الذي افتقد حنان الأب، وعطفه، وظهر ذلك بقوة في رثائه المتضمن هجاء لوالده المفتقد، وقد كانت قصيدته بمثابة الصدمة في شعر رثاء الأب ونستطيع أن نقول أن " عتابه جاش به صدره، وضاق عن كتمانه صبره. [ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، ص:١٦٣] أما **الندم،** فهو إحساس مؤلم يصاحب الإنسان في مشوار حياته، شعور قاسٍ يجتاحه بلا رحمة، ويختلف الندم باختلاف طبيعته، أو لسبب من ورائه. فهناك لحظات ندم تمر بسرعة، وهناك لحظات ندم تنقش في ذاكرتنا وتؤثر سلباً على حياتنا، هناك من يندم على التقصير في حق الله عزّ وجل، وهناك من يندم على فقدان إنسان غالٍ على نفسه، وهناك من يندم على عمل كان ينبغي أن يقوم به ولكنه لم يفعله، فأسباب الندم عديدة. "والندم لغة: نَدِم على الشيء، وندم على ما فعل نَدَماً، وندامة، وتَنَدَّم: أَسِفَ، ورجل نادم، وندمان: أي مهتم. وفي الحديث: الندم هو التوبة. [لسان العرب، لابن منظور، المجلد الثاني عشر ص:٥٧٢] أما اصطلاحاً: فالندم، هو الغم الملازم لصاحبه على أمر حصل منه تفريط [الندم والنادمون في ضوء القرآن الكريم، خالد بن عون العنزي، ص:١٩] والندم أيضاً هو: " توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب، وعلامته طول الحسرة والحزن، وانسكاب الدمع، وطول البكاء والفكر، فمن استشعر عقوبة نازلة... ببعض أعزته، طالت عليه مصيبته وبكاؤه " [إحياء علوم الدين، للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي،ص: ٣٤] أما الحسرة: فهي " أشد التَّلهُّف على الشيء الفائت " [المختار من

صحاح اللغة، محمد محي الدين عبد الحميد و محمد عبد اللطيف السبكي، ص:١٠٢] والحسرة: هي " أشد النَّدم حتى يبقى النَّادم كالحسير من الدواب، أي الذي لا منفعة منه. [لسان العرب، لابن منظور، المجلد الثاني عشرص: ١٨٨] جاءت قصيدة الشاعر إيليا أبي ماضي في موت والده مرثية متعددة الأغراض ما بين حزنٍ وتفجع على فراق والده، وما بين حنين وتذكار لحياته معه، وما بين عتاب ولوم، وندم وتحسر وإيمان أبي ماضي بأن الإنسان بعد موته سوف يعود، فيولد من جديد، إما حيواناً أو نباتاً تدب فيهما الحياة، هو إيمان استقاه من بعض أقوال الفلاسفة القدماء الذين كانوا يقولون إن الإنسان الفاضل سيتحوّل بعد موته عن طريق التناسخ إلى زهرة، فوّاحة العبير، والإنسان الشرير سيتحوّل إلى حيوان، فنجد الشاعر يوظف هذه الأفكار في شعره، نراه يخاطب أباه في أبياته وكأنه متأكد أنه سيعود، وهو نادم يلوم نفسه لوماً شديداً على ظروف حادثة الوفاة حيث يقول:

طوى بعض نفسي إذ طواك الثرى عنّي

وذا بعضها الثاني يفيض بهِ جفني

[الخمائل، إيليا أبو ماضي، ص: ١٠٩]

يبدو جلياً حزن الشاعر وتفجعه على وفاة والده من قراءتنا للأبيات وخاصة أن الشاعر لم ير أباه لحظة وفاته، ولم يشارك في جنازته ؛ وكان لهذا أثره النفسي على الشاعر، فنحن أمام شاعر عانى من مرارة فقدان الأب وقسوة الزمان، وتنكر الدهر له. هذا هو الشاعر إيليا أبو ماضي فبالرغم من ميله في كثير من أشعاره إلى التفاؤل والأمل وحب الحياة، والإقبال عليها، إلا أنه في هذه القصيدة بدا محزوناً منكسراً أمام الفاجعة التي ألمت به، ألا وهى فقدان أغلى صلة قرابة للإنسان، وأكثرها حميمية. يؤكّد الشاعر في ابياته أنّ نفسه قد انقسمت قسمين يوم وفاة أبيه، النصف الأول طواه الثرى إذ طوى أباه، والنصف الثاني فاض عبر الدموع التي تساقطت من جفنه، ثم يقول إنّ الردى قد ارتكب خيانة بحقّه إذ أخذ أباه، فتحطمت كلّ أحلامه وآماله بالسعادة. وفي ثنايا القصيدة تحول الشاعر إلى غرض الندم، فحزنه على وفاة والده أدى إلى ندمه على عدم قدرته على المشاركة في جنازته والندم يأتي نتيجة للحزن والاكتئاب، أشارت دراسة لبدر الأنصاري أحد الباحثين في دولة الكويت إلى وجود ارتباط جوهري موجب بين حالة الندم وحالات أخرى منها: الحزن، والاكتئاب،

واللوم، والخوف، والغضب، ووهن العزيمة، والذنب، والكره). [سلوك العنف وعلاقته بالشعور بالندم، ليث محمد عياش، ص:١٧٧] وهناك نوع آخر من الندم نجده عند الشاعر أبي القاسم الشابي في قصيدته (الاعتراف)حيث جاءت هذه القصيدة ؛ لتوضح أن هذا الشاعر متقد العاطفة يشتعل بها، ولاشك في ذل ك إذ كانت العواطف عنده مرضا ناهشاً فعبر فيها عن عاطفة الندم التي ظهرت واضحة جلية في أثناء نظمه لها. واسم القصيدة (الاعتراف) لا شك يوحي بمعاني الندم والشعور بالذنب، لما يرويه النادم من اعتراف حقيقي بما اقترفه من آثام، إذ قلَّما يعترف الإنسان بأخطائه صراحة، فهذه نحسبها جرأة كبيرة من الشاعر وأسرار بداخله رغب أن يطلع عليها القارئ لأسباب معينة فنراه يقول:

ما كنتُ أحْسَبُ بعدَ موتك يا أبي ومشاعري عميـــاء بالأحزان

[ديوان أبي القاسم الشابي، حياته وديوانه وأعماله المجهولة،ص: ٢١٢]

لقد كان الشاعر يعتقد أنه بعد موت أبيه سيعيش في حزن دائم ومتواصل، ولكن انتابه الشعور بالندم عندما عاد بعد موت أبيه إلى نهر الدنيا المتوهج النشوان ولعل سبب الفارق الجوهري بين غ رض الندم في رثاء الشاعر إيليا أبي ماضي ورثاء الشاعر أبي القاسم الشابي، **فالأول** حمل مضموناً مستكيناً ضعيفاً يعتمد أكثر على استثارة العاطفة، واستجلاب الحزن من القارئ لمشاركة الشاعر في تجربته ؛ لأنه لا يحمل مبررات مقنعة لأسباب ندمه، أما **الثاني** فقد تميز بالقوة إلى حد أنه لم يخش أن يسمي قصيدته (الاعتراف) أو لسبب في هذا التماسك في المضمون؛ لأن الشاعر يتسلح بالمبررات المقنعة الموجبة للندم والتي لم يقع فيها الشاعر وحده، بل يقع فيها جميع أجناس البشر على اختلافهم، وربما يؤشر الفارق بين القصيدتين على هذا النحو إلى الفارق الزمني في نظمها عند الشاعرين، ونحن نرجّح أن يكون أبو ماضي قد كتب قصيدته بُعَيد وفاة والده ودفنه، في حين يظهر أن أبا القاسم الشابي قد كتبها بعد فترة زمنية طويلة، ولعل ذلك في لحظة استذكار لأبيه على نحوٍ ما.

ملخص المقالة:

سَعَتْ هذه المقالة إلي دراسة موضوع (مرثية الأب في الشعر العربي المعاصر)، بغية استبانة طبيعة هذه التجربة على المستويين الشعوريّ والفكريّ وقد جاءت هذه المقالة بعد

(مقدمتها)، التي اشتملت علي موضوع الرثاء و أسباب اختيار الموضوع، ومنهجية البحث، وهيكلته... اهتم بتجلية مواقف الشعراء من تجربة) فقد الأب)،حيث أمكن تمييز ثلاثة مواقف أساسية، هي: موقف الحزن والتفجع، وموقف الحنين والتذكار، وموقف العتاب والندم أما أبرز النتائج التي انتهت إليها هذه المقالة، فيمكن معاينتها بشكل تفصيلي في (الخاتمة)، التي اختصت برصدها، والله الموفق والهادي سواء السبيل.

نكات كليدي:رثاء، التفجع،الحنين،العتاب

الخاتمة:

الحمد لله، أحمده وأستعينه وأستغفره، وأصلي على خير خلقه وخاتم أنبيائه نبينا محمد عليه افضل الصلاة وأتم التسليم، وبعدحيث جاءت هذه المقالة في الموضوع (مرثية الأب في الشعر العربي المعاصر) أن نجمل أهمّ النتائج التي توصّل إليها هذا البحث:

- اختلفت مواقف الشعراء إزاء تجربة فقد الأب، حيث أمكن تمييز ثلاثة مواقف رئيسة، هي: موقف الحزن والتفجع، وموقف الحنين والتذكار، وموقف العتاب والندم. على الرغم من التباين الواضح بين الشعراء في مواقفهم السالفة، فإنه لا تكاد تخلوقصيدة واحدة من عاطفة الحزن والتفجع، إذ يظل هذا الشعور ساريا في أغلب النصوص الرثائية.في قصائد الحنين والتذكار، يلحظ المتتبع مدى الأثر الكبير لموت الأب في تفجير ذاكرة الشاعر، التي جاءت مليئة بالمواقف الحياتية والتفاصيل الدقيقة التي لا تزال تختزنها (ذاكرة الابن/الطفل) في علاقته بوالده.
- كما تجدر الإشار ة إلى اختلاف مواقف الشعراء من الموت نفسه، فإذا كان هناك من استسلم لهذه الحقيقة الوجودية الكبرى التي لا اردّ لها، فقد رأينا من يتذمر من الموت ويسخط عليه وآخردعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

١- الأعمال الشعرية الكاملة، أحمد شوقي، دار العودة، بيروت، المجلد الثاني، الجزء الثالث في المراثي.

٢- الخمائل، إيليا أبو ماضي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية عشرة.

٣- دموع الوفاء، يوسف محي الدين أبو هلالة، دار الضياء للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٤- ديوان أبي القاسم الشابي حياته، شعره، دمشق، سوريا، دار المحرم للطباعة والنشر، ١٩٨٠م.

٥- ديوان أبي القاسم الشابي شاعر الحب والثورة والحرية، حياته وديوانه وشعره المجهول، تحقيق ودارسة محمد رضوان، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

٦- ديوان محمود سامي البارودي، جمع وتقديم وتعليق سمير إبراهيم بسيوني، مكتبة جزيرة الورد.

٧- شعر عبد المنعم الرفاعي، تحقيق إبراهيم الكوفحي، الشركة الجديدة للطباعة والتجليد، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.

٨- عِفتُ سُكونَ النار، الحساني حسن عبد الله، منشو ا رت دار اللواء بالرياض.

٩ - منازل أهلي، حبيب الزيودي، مطبعة الصفدي، عمان.

١٠- الناس في بلادي، ديوان صلاح عبد الصبور، دار العودة، بيروت، الطيعة الأولى، ١٩٧٢م.

ثانياً: المراجع

١- أحمد شوقي الشاعر الإنسان، أحمد عبد المجيد، دار المعارف، القاهرة، مكتبة المصطفى الألكترونية.

٢- إحياء علوم الدين، للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغ ا زلي، بقلم بدوي طبانة، الجزء الرابع، إندونيسيا، مطبعة (كرباطه فوتر ا) سماراغ.

٣- الأم في الشعر المعاصر، محمد إبراهيم حوّر، المؤسسة العربية للدارسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

٤ - الحزن والاكتئاب على ضوء الكتاب والسُّنة، عبد الله الخاطر، راجعه وقدم له الدكتور عبد الرازق ابن محمد الحمد.

٥ - ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، شرحه وضبط نصه، أحمد حسن بسج، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٦- الرثاء، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة.

٧ - الشكوى والعتاب وما وقع للخلّان والأصحاب، لأبي منصور الثعالبي، دار الصحابة للتراث بطنطا، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٨- العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق مفيد محمد قميحة، الجزء الثاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٩ - القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

١٠- قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، عبد السلام المسدي، دار سعاد الصباح، الكويت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٣م.

١١- لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت.

١٢- المختار من صحاح اللغة، محمد محي الدين عبد الحميد و محمد عبد اللطيف السبكي، القاهرة، مطبعة الاستقامة.

١٣ - مدح العتاب وذمه في الشريعة والحكمة والأخلاق، عبد القادر الشيخلي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

١٤- الندم والنادمون في ضوء القرآن الكريم، خالد بن عون العنزي، مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

١٥ - التشبيه في مختارات البارودي، محمد رفعت أحمد زنجير، رسالة معدة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة والنقد، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

١٦ - رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري، رسالة دكتوراه، مخيمر صالح موسى يحي، مكتبة المنار الأردن، الطبعة الأولى.

١٧ - أبو القاسم الشابي عبقرية فريدة وشاعرة متجددة، سحر عبد الله عمران دراسة ومختارات، مجلة الهيئة العامة السورية للكتاب، دار البعث، ٢٠٠٩م.

١٨- خالد عطار، شبكة ضفاف لعلوم اللغة العربية،
http://www.dhifaaf.com/vb/showthread.php?p=119702

١٩- رثاء الأسرة في شعر ابن حمديس الصقلي، مصلح بن بركات المالكي، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجيستر في الفرع الادب العربي، جامعة ام القرى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦،

٢٠- الأعمال الشعرية الكاملة، صلاح عبد الصبور، القاهرة، مصر، الهيئة المصرية، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩١.

٢١- أ غاني الحياة، أبوالقاسم الشابي، دارالصادر، بيروت.